المبحث الأول:
معالم عامة في سيرة العلامة ابن عاشور

المبحث الأول: معالم عامة في سيرة العلامة ابن عاشور

هو العلامة الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، **ولد في** ضاحية المرسى في تونس جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ بقصر جده للأم الصدر الوزير محمد العزيز بو عتور.

وقد شب في أحضان أسرة علمية، ونشأ بين أحضان والد يأمل أن يكون على مثال جده في العلم والنبوغ والعبقرية، وفي رعاية جده لأمه الوزير الذي كان يحرص على أن يكون خليفة لهم في العلم والسلطان والجاه.

تلقى العلم كأبناء جيله، حيث حفظ القرآن، واتجه إلى حفظ المتون السائدة في وقته، ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠، وشرع ينهل من معينه في تعطُّشٍ وحبٍّ للمعرفة، ثم برز ونبغ في شتى العلوم سواء في علوم الشريعة، أو اللغة، أو الآداب أو غيرها من المعارف، والثقافات، بل والطب، وإتقان الفرنسية؛ فكان آية في ذلك كله.

له مؤلفات كثيرة في شتى الفنون، منها تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وكشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا، وردٌّ على كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبدالرازق، وأصول التقدم في الإسلام، وأصول الإنشاء والخطابة، وأليس الصبح بقريب، وغيرها كثيرٌ كثيرٌ سواء أكان مطبوعاً أم مخطوطاً.

وكان ذا عقل جبار، وذا تدفُّق وتدفُّع في العلم؛ فكأنه إذا كتب في أي فنٍّ أو

موضوع - يغرف من بحر، وينحت من صخر؛ فإذا رأيت عنوان الموضوع الذي يريد الكتابة فيه قلت: ماذا سيقول؟ فإذا قرأت ما تحته رأيت العجب العجاب؛ لذا فإنك تحتاج وأنت تقرأ له أن تُحضر ذهنك، ولا تتشاغل عنه.

وكان ذا أسلوب محكم النسج، شديد الأسر، يذكر بأرباب البيان الأوائل.

وكان إذا كتب استجمع مواهبه العلمية، واللغوية، والأدبية، والاجتماعية، والتاريخية، والتربوية وغيرها لخدمة غرضه الذي يرمي إليه.

فلا غروَ -إذاً- أن تجد في كتاباته عن أي موضوع: القصةَ، والحادثةَ التاريخيةَ، والنكتةَ البلاغيةَ، والمسألةَ النحويةَ، والأبياتِ الشعريةَ، والمقاصدَ الشرعيةَ، والمناقشةَ الحرةَ، والترجيحَ والموازنةَ.

كل ذلك بأدب عالٍ، وأسلوب راقٍ، ونَفَسٍ مستريض؛ فتشعر إذا قرأت له أن هذا البحث كتبه مجموعةٌ من المتخصصين في فنون شتى.

يقول الأستاذ محمد الطاهر الميساوي -حفظه الله- في مقدمة كتاب مقاصد الشريعة لابن عاشور: «ومن ثمَّ فلا غرابة أن جاءت هذه السيرة وارفة الأفنان، متنوعة العطاء، دانية القطوف، وكأنما أنت في حضرة مجمع من العلماء ضُمَّ في صعيد واحد: اللغوي، والأديب، والمفسر، والمحدث، والأصولي، والفقيه، والمربي، والمؤرخ، والفيلسوف، والمنطقي، بل وحتى العالم بأمور الطب.

ويكفي لمعرفة مكانة ابن عاشور في التفسير الإحالة على موسوعته تفسير التحرير والتنوير.

أما في الحديث فهو حافظ حجة له إسناد جامع لصحيحي البخاري ومسلم،

وله كذلك إسناد عزيز روى به أحاديث البخاري يعرف بسند المحمّدين، وقد أجاز بذلك عدداً من العلماء من تونس والجزائر والمغرب.

هذا إلى تحقيقاته وشروحه على مرويات الإمامين مالك بن أنس (كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا) وأبي عبدالله البخاري (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح) التي استدرك فيها على الكثيرين من سابقيه.

أما رسوخ قدمه في الفقه وأصوله فيكفي شاهداً له كتاب (المقاصد) الذي بين أيدينا، وشرحه المسهب وتحقيقاته المتينة على كتاب تنقيح الفصول في الأصول للقرافي[1].

وابن عاشور إلى هذا وذاك لُغوي محقّق بالمعنى الواسع لعلوم اللغة، سَلَّمَتْ له بالإمامة في ذلك المجامعُ العلمية كمجمعيْ دمشق والقاهرة اللّذيْن اعتمداه عضواً مراسلاً بهما، وما تزال مداخلاته وأنظاره على صفحات مجلتيهما تنتظر الجمع والتحقيق والنشر.

ذلك فضلاً عن العدد الكبير من كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر التي حققها، فمنها ما نشر، ومنها ما لا يزال مخطوطاً.

---

١ ـ يقول الميساوي: «العنوان الكامل لهذا الكتاب المهم هو: حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول، وقد نَشَرَتْه في أربعة أجزاء مطبعةُ النهضة بتونس سنة ١٣٤١هـ.

وسنقوم بإعداده للنشر في القريب العاجل بعون الله ـتعالى-».

وللفلسفة والمنطق عند ابن عاشور مكانة وتقدير؛ فقد كان يدرِّس المنطق والحكمة، وكان كتاب النجاة للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا من جملة الكتب التي درَّسها بجامع الزيتونة، جنباً إلى جنب مع المقدمة لابن خلدون، ودلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني، والموافقات للشاطبي..إلخ.

وهو كثيراً ما يستشهد بأقوال الفلاسفة وينوه بآرائهم، ويوظف مناهجهم في استدلالاته وتحليلاته، ويدرأ ما حاق بأنظارهم من سوء فهم وسوء تأويل.

أما ما قد يثير الاستغراب حقّاً فهو صلته بالطب التي تحتاج إلى تحقيق، خاصة وأن له في هذا كتاباً مخطوطاً بعنوان تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للحكيم ابن زهر.

أما التاريخ فله فيه كذلك آثار ما تزال مخطوطة منها كتاب (تاريخ العرب) وكتابات في السير والتراجم»[١].

وقال الميساوي: «ولكن على الرغم من سمات الغزارة والتنوع والشمول والأصالة التي طبعت شخصيته فاصطبغت بها آثاره وأعماله ـ فإن ما صُرِف له من عناية الباحثين وجهود الدارسين لا يكاد يفي بمعشار ما يستحق، بل إن طوائف كبيرة من المهتمين بحركة الفكر الإسلامي ومصائره في العصر الحديث لا يكادون يعرفون عنه شيئاً ذا بال، ناهيك عن عامة المثقفين وسائر جمهور المسلمين.

فمن العسير العثور على دراسة علمية ضافية تترجم لشخصيته ترجمة موثقة

---

١ ـ مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي ص١٦ـ١٧.

ووافية، وتعرف بتراثه العلمي تعريفاً دقيقاً، فضلاً عن أن تحيط بذلك التراث تحليلاً لمكوناته وأبعاده، واستجلاءً لمواطن الأصالة والابتكار فيه، وتقديراً وتقويماً لمكانته في سياق حركة الفكر والثقافة الإسلاميين في موطن نشأته -تونس- على وجه الخصوص، وفي العالم الإسلامي بوجه العموم.

بل إن آثاره العلمية لم يتح لها من الانتشار والتداول ما يجعلها في متناول الدارسين والباحثين، فضلاً عن سواهم من طلاب المعرفة والمثقفين.

فكثيرٌ مما طُبع منها قد تطاول عليه العهد ونفد من المكتبات، ولم يجد من أهل العزم من المحققين والناشرين من يتولّى نفضَ الغبار عنه، وإخراجه للناس إخراجاً جديداً.

أما ما لَمْ يُطبع -وهو غزير- فلا يزال طيُّ النسيان يقبع مخطوطاً على رفوف المكتبة العاشورية بالمرسى في تونس، ويتراكم عليه غبارُ السنين، وتتهدده آفاتُها بالإتلاف، وكأنما تواطأت صروفُ الزمان، وإهمال الإنسان أو تدبيرُه على تغييب مَعْلَمٍ مهم من معالِم الحياة الفكرية والعلمية للمسلمين في القرن العشرين!

فالرجل «لم يلق حظه» كما قال بحق المرحوم الشيخ محمد الغزالي.

إن ابن عاشور ليس اسماً عاديّاً في محيط الثقافة الإسلامية، بل إن اسمه وجهاده قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بواحدة من أهم مؤسسات هذه الثقافة وبرمز من أبرز رموزها في النصف الأول من القرن العشرين، ألا وهي جامعة الزيتونة.

وهو -بدون شك- آخر العمالقة الذين عرفهم التاريخ المديد لهذه المؤسسة العريقة، قبل أن يتم الإجهازُ عليها، وطمسُها في ظل عهود الاستقلال الموهوم،

والتحديث المزيف.

لقد عَرَفَتِ الزيتونةُ محمداً الطاهر ابن عاشور طالباً نابهاً متميزاً في تحصيله العلمي، وخَبَرَتْهُ أَرْوِقَتُها مدرِّساً متحمساً مقتدراً، وَعِهِدَه طلابُها وأساتيذُها داعيةً لإصلاح التعليم الزيتوني، وحاملاً للوائه، وعاملاً في سبيله من مواقع مختلفة، كما عرفت تونس ابن عاشور شيخاً لجامعها الأعظم ـ الزيتونة ـ وخبرته قاضياً ومفتياً يتوخَّى تحقيقَ العدل والالتزام بالحق في أقضيته وفتاويه مهما كان في ذلك من معارضة لرغبات المتقاضين، أو مناقضة لأهواء المستفتين».[1]

هذا وقد تولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالتدريس، والقضاء، والإفتاء، وعضويات المجامع العلمية، وغيرها.

أوليات ابن عاشور[2]: اعتنى الأوَّلون بالتصنيف بالأوائل، مثل أبي هلال العسكري، والجراعي، والسيوطي.

وللشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أوّليات تستحقّ الوقوف عندها، والإشارة إليها، وهي مظهر من مظاهر تميّز المترجم له رحمه الله وفيما يلي شيء من ذلك:

١ـ وهو أوّل مَنْ جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي، وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة).

٢ـ وهو أوَّل مَنْ سُمِّي شيخاً للجامع الأعظم سنة (١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م)

---

١ ـ المرجع السابق ص١٧ـ١٩.

٢ ـ انظر شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره د. بلقاسم الغالي ص٥٦ـ٦٢، ومحمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه للأستاذ خالد الطباع ص٧٨ـ٨٠.

ليتولّى الإصلاحات العلمية والتعليمية، فكان أوّل شيخ لإدارة التعليم بجامع الزيتونة عوضاً عن النظارة[1] التي كانت هي المسيّرة للتعليم به.

٣ـ وأوَّل مَنْ لُقِّبَ بشيخ الإسلام، وهو لقب تفخيمي تداولته الرئاسة الشرعية الحنفية بتونس منذ القرن العاشر الهجري، ولم يكن لدى المالكية بتونس هذا اللقب.

وقد أُطلق على رئيس المجلس الشرعي الأعلى للمالكية بصفة رسمية عليه.

٤ـ وهو أوَّل مَنْ تقلّد جائزة الدولة التقديرية للدولة التونسية ونال وسام الاستحقاق الثقافي سنة (١٩٦٨م) وهو أعلى وسام ثقافي قررت الدولة التونسية إسناده إلى كلّ مفكر امتاز بإنتاجه الوافر ومؤلفاته العميقة الأبحاث، ودعوته الإصلاحية ذات الأثر البعيد المدى في مختلف الأوساط الفكرية.

وحصل على جائزة رئيس الجمهورية في الإسلاميات عامي ١٩٧٢م-١٩٧٣م.

٥ـ وهو أوَّل مَنْ أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحالي بعد العزّ ابن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ) والشاطبي (٧٩٠هـ).

٦ـ وهو أوَّلُ مَن أدخل إصلاحاتٍ تعليميّةً وتنظيميّة في الجامع الزيتوني في إطار منظومة تربوية فكرية، صاغها في كتابه: (أليس الصبح بقريب) الذي ألفه في بواكير حياته، والذي دل على عقلية تربوية فذة، وكان شاهداً على الإصلاح التربوي والتعليمي الشرعي المنشود.

فأضاف إلى الدراسة موادَّ جديدةً كالكيمياء والفيزياء والجبر وغيرها، وأكثر

١ـ النظارة: هي الهيئة المشرفة على التعليم.

من دروس الصرف، ومن دروس أدب اللغة، وشَرَع بنفسه في تدريس ديوان الحماسة، ولعلّه أول من درّس ذلك في الزيتونة.

أخلاق ابن عاشور وشمائله: كان الشيخ رحمه الله تزينه أخلاق رضية، وتواضع جم، فلم يكن على سعة اطلاعه وغزارة معارفه مغروراً كشأن بعض الأدعياء ممن لم يبلغ شأوه.

كان مترفعاً عن صغائر الأمور، إن نظرت إليه ـكما يقول مترجموهـ لم تقل إلا أنه رجل من النبلاء جمع بين النبل في الحسب والنسب، والنبل في العلم والأخلاق حتى قال فيه الشيخ محمد الخضر حسين: «ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم»[1].

وقد اشتهر رحمه الله بالصبر، وقوة الاحتمال، وعلو الهمة، والاعتزاز بالنفس، والصمود أمام الكوارث، والترفع عن الدنايا، تراه في كتاباته عفيف القلم، حلو المحاضرة، طيب المعاشرة مع تلاميذه حتى إنك لا تجد بين كتاباته رداً على أحد ممن وقف ضده موقف الخصم، بل أسبغ على كتاباته طابع العلم الذي يجب أن يُبلِّغه، لا مظهر الردود التي تضيع أوقات طالب العلم، وتقود إلى الأحقاد والتعصب.

بل إن أشهر ما عُرِف به الشيخُ رحابة صدره مع منتقدي فتاويه، ومخالفيه في الرأي؛ فهو لا يغلظ لهم القول، ولا ينقدهم النقد اللاذع، بل يُلَمِّح باحترام وتقدير ولطف دون أن يتعدى دائرة النطاق العلمي النزيه.

---

١ ـ تونس وجامع الزيتونة ص٨١، وانظر محمد الطاهر بن عاشور للطباع ص٨١.

وما عَرف لسانُه ولا قلمه نابيَ الكلام؛ فإذا احتاج إلى الرد على أحد ـ عَلَت ردودَه مسحةٌ من الأدب الجم، واحترام آراء الآخرين، وترك الاستخفاف أو الاستنقاص للمخالفين كيفما كانت شخصياتهم، ومهما كانت آراؤهم.

ولذلك لم يَنْزِل طيلة حياته إلى الإسفاف في القول كما هو الشأن في المناقشات التي ظهرت في عصره، والمعارك الأدبية والعلمية التي كانت يومئذ محط أنظار الناس[1].

يقول فيه صديقه في الطلب الشيخ محمد الخضر حسين متحدثاً عن شيء من أخلاقه: «شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم»[2].

ويقول فيه: «وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارةِ العلمِ وقوةِ النظرِ صفاءَ الذوقِ، وسعةَ الاطلاعِ في آداب اللغة.

وأذكر أنه كانَ يوماً في ناحية من جامع الزيتونة ومعه أديبان من خيرة أدبائنا، وكنتُ أقرأ درساً في ناحية أخرى من الجامع، فبعث إليَّ بورقة بها هذان البيتان:

تألَّقَتِ الآدابُ كالبدر في السَّحَرْ ... وقد لفظ البحران موجُهما الدرر

فما لي أرى منطيقها الآن غائباً ... وفي مجمع البحرين لا يُفقد (الخضر)[3]

وقد وصف ابن عاشور نفسه بقوله: «ولا آنسُ برفقة ولا حديثٍ أُنْسي بمسامرة

---

١ ـ انظر شيخ الجامع الأعظم ص١٥٠، ومحمد الطاهر بن عاشور للطباع ص٨١.

٢ ـ تونس وجامع الزيتونة ص١٢٥ـ١٢٦.

٣ ـ انظر شيخ الجامع الأعظم ص٦٣، ومحمد الطاهر بن عاشور ص٨٢.

الأساتيذ والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حُبِّبَ إليَّ شيء ما حُبّبت إليّ الخلوة إلى الكتاب والقرطاس متنكّباً كلَّ ما يجري من مشاغل تكاليف الحياة الخاصة، ولا أعباء الأمانات العامة التي حُمِّلتُها فاحتملتُها في القضاء وإدارة التعليم حالت بيني وبين أنسي في دروس تضيء منها بروق البحث الذكي، والفهم الصائب بيني وبين أبنائي الذين ما كانوا إلاّ قرَّة عين وعدّة فخر، ومنهم اليوم علماء بارزون، أو في مطالعة تحارير أَخْلُصُ فيها نجيّاً إلى الماضي من العلماء والأدباء الذين خلّفوا لنا آثارهم الجليلة ميادين فسيحة ركضنا فيها الأفهام والأقلام مرامي بعيدة سدَّدنا إليها صائب المهام»[١].

ووصفه أحدهم فقال: «رأيتُ فيه شيخاً مهيباً يمثّل امتداداً للسلف الصالح في سمته، ودخل في عقده العاشر ولم تَنَلْ منه السنون شيئاً..

قامة سمهرية خفيفة اللحم، وعقلية شابة ثرية بحصيلتها، وقلب حافظ أصاب من علوم القدماء والمحدثين، ولسان لافظ يقدر على الخوض في كلّ شيء من المعارف، وذهن متفتّح يشقّق الحديث روافد مع وقار يزيّنه، وفضل يبيّنه، وأخلاق وشمائل حسنة تهش للأضياف، وترحّب بالوارد، وتعطي في عمق لمن يريد الاغتراف من بحر كثرت مياهه، وقد ازدحمت العلوم فيه»[٢].

ووصفه الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة فقال: «كان فريداً مع تقدّم السنّ في حضور واستحضار ما يسأل عنه من مسائل؛ أذكر أنّني طلبتُ منه ذات يوم من

---

١ ـ محمد الطاهر بن عاشور ص٨٢.

٢ ـ مجلة جوهر الإسلام عدد١، السنة ١٩٦٣م ص٥٦، وانظر شيخ الجامع الأعظم ص٦٣.

شهر أوت (أغسطس ـ آب) (١٩٦٣م) بعد أن جلستُ إليه في زيارتي له بعد العصر عن وجه إعراب خفي عليّ، فإذا الإمام ـ رحمة الله عليه ـ يفيض في بيان ذلك، ويشرح الوجوه المختلفة، فيستشهد بما أوردهُ ابن هشام في (المغني) وفي (التصريح)، وكأنه يقرأ في كتاب.

وكذلك كان شأنه في كلِّ ما يُسأل عنه من قضايا العلم اللغوي أو الشرعي، كان خزانة علم تتنقل يجد لديه كل طالب بغيته، أعانه على حصول ذلك وبلوغ المرتبة العالية العجيبة فيه اشتغاله المتواصل بالمراجعة والتدريس والتحقيق والتأليف، مع صحة ذهن، وجودة طبع، وقوة عارضة، وطلاقة لسان.

والشيخ صبور على المحن، فلم يَشْكُ من أحد؛ رغم الحملات التي أُثيرت ضدّه، ولم أعثر في نقده العلمي على ما يمسُّ الذوق، أو يخدش الكرامة، عفّ اللسان، كريم، مُحِبٌّ لأهل العلم ولطلبته، ولمن كان أهلاً للمحبة.

وكان في مناقشاته العلمية لا يجرح أحداً، ولا يحطّ من قدره، فإذا لاحظ تهافتاً في الفكر لَمَّح إلى ذلك تلميحاً.

ولم أجد في خصوماته الفكرية ما يمسّ شخصية أحد قطّ، ورغم الحملات التي شُنَّت ضده في فتوى التجنّس وغيرها لم ينزل عن المستوى الخلقي الذي يتصف به العلماء، بل لم يُشِرْ إلى خصومه، ولم يشكُ منهم قط.

وأما عاداته ومعاملاته فكان الشيخ كثير الإحسان إلى مساعديه من المستكتبين والعملة، ومن عاداته عدم تناول وجبة العشاء، فإذا حضر مأدبة تظاهر بالأكل

مجاملةً»[١].

قال داغر: «امتاز إلى جانب علمه ودأبه ومعرفته الواسعة وتحرره الفكري، بالتواضع، والنفس الخيّرة، والعقل الراجح، والتدبير القويم»[٢].

ويقول فيه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة: «هو نمطٌ فريد من الأشياخ لم نعرف مثله بين معاصريه أو طلابه أو من كان في درجتهم من أهل العلم؛ إذ كان انكبابه على الدرس متميّزاً، واشتغاله بالمطالعة غير منقطع، مع عناية دائمة مستمرة بالتدوين والكتابة، وتقديم ما يحتاج إليه الناس من معارف وعلوم، وأذواق وآداب، وملاحظات وتأملات؛ فلا بدع إذا اطّرَدتْ جهودُه، واستمرّ عطاؤه في مختلف مجالات الدرس والثقافة: في حقول المعرفة الشرعية الدينية، وفي الدراسات اللغوية، وفي معالجة أوضاع التعليم في الزيتونة، والعمل على إصلاحها، مع ذبّه عن الإسلام أصوله وآدابه، وتطلعه كل يوم إلى مزيدٍ من المعرفة بكلّ ما يمكن أن يقع تحت يده من كتب فريدة، ومخطوطات ومصنفات في شتّى العلوم والفنون.

وقد وهبه الله متانة علمٍ، وسعة ثقافة، وعمق نظر، وقدرة لا تفتر على التدوين والنشر، وملكات نقدية يتضح أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتعريفات، وما يلحق بها من ابتداعات وتصرفات.

وهكذا صدرت مقالاته وتحقيقاته، وبحوثه وتآليفه متدفقة متوالية من غير

---

١ ـ شيخ الجامع الأعظم ص٦٣ـ٧٤.

٢ ـ محمد الطاهر بن عاشور ص٨٤.

انقطاع أو ضعف، فَنُشِر ما نُشِرَ، وبقي الكثير منها محفوظاً بخزانة آل عاشور ينتظر من يتولى نشره وطبعه وتحقيقه»[١].

ومن لطائف ذكائه ما ذكره تلميذه أبو الحسن بن شعبان الأديب الشاعر حيث حكى عن نفسه أنه كان يحضر دروس العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في (الموطأ) وهو إذ ذاك شيخ الزيتونة، وشيخ الإسلام المالكي حوالي عام(١٩٣٣م) وفي ذات مرة ناقش الشيخ ابن عاشور في مدلول لفظة لغوية، والشيخ ابن عاشور متمكّن في مادة اللغة، متثبت في نقله، مع سمو ذوق وقدرة على الترجيح بين الأقوال، في أسلوب علمي وحُسن عرض، ولما طالت المناقشة أراد المترجم أن يفحم الشيخ ابن عاشور؛ فاخترع لوقته شاهداً شعرياً على صحّة زعمه، فأجابه الشيخ ابن عاشور بديهةً ومن الوزن والرويّ نفسه:

يروون من الشعر ما لا يوجد[٢]

ففغر فاه مبهوتاً من شدة ذكاء الشيخ، وسرعة بديهته.

وأخيراً هذه مقالةٌ تجمع كثيراً من معالم سيرة الشيخ ابن عاشور كتبها الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي الجزائري ١٣٠٦ـ١٣٨٥هـ في الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ونُشرت في جريدة البصائر سنة ١٩٤٨هـ، وهي في آثار البشير ٣/٥٤٨ـ٥٥٢، بعنوان (الرجال أعمال ـ محمد الطاهر بن عاشور

---

١ ـ محمد الطاهر بن عاشور ص٨٤ـ٨٥.

٢ ـ هكذا في كتاب الأستاذ الطباع، والبيت هكذا لا يستقيم وزنه، ولعل الصواب:

يروي من الأشعار ما لا يوجد

وعبدالحميد بن باديس إماما النهضة العلمية في الشمال الإفريقي).

ومما جاء في تلك المقالة التي كتبها البشير رحمه الله قوله:

«الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدُّهم التاريخ الحاضر من ذخائره؛ فهو إمام متبحِّر في العلوم الإسلامية، مستقلٌّ في الاستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذّرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرّجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي، وتفرّد بالتوسع والتجديد لفروع من العلم ضيَّقها المنهاجُ الزيتوني، وأبلاها الركودُ الذهنيُّ، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل؛ فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياةً وجِدَّةً، وأشاع فيها مائية ورونقاً، حتى استرجعت بعض قيمتها في النفوس، ومنزلتها في الاعتبار».

وقال: «هذه لمحات دالة -في الجملة- على منزلته العلميةِ، وخلاصتُها أنه إمام في العلميات لا يُنازع في إمامته أحد.

وأما العمليات فلا نعدّ منها التدريس في جامع الزيتونة، وإنما نعدّ منها إصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وقد اجتمعت في الأستاذِ وسائلُه، وتكاملت أدواته، من عقل راجح لا يخيس وزنُه، وبصيرة نافذة إلى ما وراء المظاهر الغرَّارة، وفكر غوّاص على حقائق الأشياء، وذكاء تشفُّ له الحُجُب، واطلاع على تاريخنا العلمي في جميع أطواره، واستعدادٍ قوي متمكن للتجديد والإصلاح.

ومن شأن هذه المواهب المتجمعة في أمثال الأستاذ أنها تكمن حتى تُظهرها الحاجة والضرورة، والحاجة إذا ألحَّت كشفت عن رجل الساعة، وأخرجت القائم المنتظر، وقد وُجدت الحاجة إلى الإصلاح في كليتنا، فوُجد الرجل

المدّخر، فكان الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور.

وإن تدبير الأحوال الاجتماعية لأقوى وأبقى من تدبير الجماعات، وإن تدبير الجماعات لأَثَرٌ من روح الاجتماع وإن غفل الناس عن ذلك.

تقلّد الأستاذ مشيخةَ الجامعِ للمرة الأولى، فدلّت المصائر على أن التدبير الاجتماعي لم يكمُل، وكان من الظواهر المحسوسة أنها وظيفة جديدة لم يطمئن موطنها، ولم يدمّث موطئها، ولم تهشّ لها النفوس المبتلاة بالتقليد، والمريضةُ بالمنافسة، خصوصاً وهي -في حقيقتها- نزع للسلطة من جماعة وحصرها في واحد.

والخروج عن المألوفات العادية يراه المجدّدون وضعاً للإصْر، وانطلاقاً من الأسر، ويراه الجامدون فساداً في الأرض وشرطاً من أشراط الساعة.

ثم قُلِّد الأستاذُ مشيخةَ الجامع للمرة الثانية، وكان الأمر قد استتبّ، والنفوس النافرة من التجديد قد اطمأنَّت، والضرورة الداعية إلى الإصلاح قد رَجَحت؛ ومعنى ذلك كله أن التدبير الاجتماعي قد كمل؛ فخبّ الجواد في مضماره، وشع نور ذلك الاستعداد من ناره، وكان ما سرّ نفوس المصلحين من إصلاح وإن لم يبلغ مداه بعد.

لم يرَ جامع الزيتونة في عهوده الأخيرة عهداً أزهر من هذا العهد، ولم يرَ في الرجال المسيرين له رجلاً أقدر على الإصلاح، وأمدّ باعاً من شيخه الحالي.

وإذا كان الإصلاح يسير ببطء فما الذنب ذنبه، وإنما الذنب لطبيعة الزمان والمكان، وضعف المقتضيات، وقوّة الموانع.

وحسبه أنه حرَّك الخامد، وزعزع الجامد، وأجال اليد المُصلحة في الإدارة وفي

كتب الدراسة وفي أشياء أُخر.

وتلك هي مبادئ الإصلاح التي ينبني عليها أساسه.

وحسبه -أيضاً- أنه نبّه الأذهان إلى أن إصلاحاتِ خير الدين كعهد الأمان، كلاهما لا يصلح لهذا الزمان.

وشتّان ما زمنٌ كله ممهد بالاحتلال، وزمن كل ما فيه ينادي بالاستقلال».

وقال: «وإن الزيتونة لا تتبوّأ مكانها الرفيع إلا بواسطة جهاز داخلي متماسك الأجزاء من علمائها، يؤُمّهم إمامٌ مدرّب محنّك فقيه في المذاهب الإدارية، مجتهد في أصولها.

وإن ذلك الإمامَ المدرّبَ الفقيه المجتهد الجامع لشروط الإمامة في هذا الباب - لهو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

إن الذين يُثيرون في وجهه الغبار، أو يضعون في وجهته العوائر - لمجرمون.

وإنا -إن شاء الله- للأستاذ الأكبر في طريقه الإصلاحي لمؤيدون وناصرون».

وفاته: بعض من ترجموا للشيخ ابن عاشور يذكرون أنه توفي سنة ١٣٩٣هـ.

ولعل أقرب الناس صلة بالشيخ تلميذه معالي الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة -حفظه الله-.

وقد ذكر أن الشيخ توفي بالمرسى يوم الأحد ١٣ رجب ١٣٩٤هـ، ١٢ أغسطس ١٩٧٣م، ووري التراب في مقبرة الزلاج في مدينة تونس[1].

---

١ - انظر شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، للشيخ محمد الحبيب بن الخوجة ١٦٩/١.

وقد ذكر الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة أن عمر الشيخ ابن عاشور ٩٤ سنة، ولعل ذلك يصدق عليه بالتاريخ الميلادي حيث ولد في سبتمبر عام ١٨٧٩م، وتوفي -كما مر- عام ١٩٧٣م.

أما في التاريخ الهجري فيكون عمره ٩٨ سنة؛ حيث ولد في جمادى الأولى عام ١٢٩٦، وتوفي عام ١٣٩٤هـ.